Journal of Alasmarya University
Volume 15, December 2010

مجلة الجامعة الأسمرية
المجلد الخامس عشر، ديسمبر 2010

الخطاب الإسلامي من خلال التفسير العلمي للقرآن الكريم

د . زغلول النجار أنموذجاً

د . باسم محمد خليل*

الحمد لله رب العلمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد:

فإن التجديد في الخطاب الإسلامي وإثبات عالميته لا يتأتى إلا بأن يواكب العصر الذي نحياه، ويلائم المعارف والثقافات المختلفة، وبخاصة في مواجهة الخطاب الغربي ودحض الشبهات التي تثار ضد الخطاب الإسلامي.

والتفسير العلمي للقرآن الكريم يعدّ مجالاً خصباً للعلماء في مجال التجديد التفسيري؛ إذ يستطيع العلم الحديث بمكتشفاته وما توصل إليه من أبحاث علمية متخصصة بأدوات وأجهزة دقيقة أن يؤيد كثيراً من الأحكام الشرعية، وذلك بتوضيح المصلحة التي تحققت للإنسان والمفسدة التي درئت عنه، فيزداد الذين آمنوا إيمانا، وتبدو صلاحيته لكل زمان ومكان، وتتجلى الصورة واضحة أمام غير المسلمين ويضعف جانب المرتابين والمشككين في كمال الشريعة الإسلامية[1].

وقد ثبت أن كثيراً من الحقائق العلمية تتفق مع ما أشار إليه القرآن الكريم في محكم آياته، وما يكشفه التفسير العلمي من إعجاز يفيد في إغلاق أبواب الإلحاد أمام

* جامعة الفيوم، مصر.

1- انظر: كيف نتعامل مع القرآن، د. يوسف القرضاوي، ص 392 ط: دار الشروق 1421هـ.

غير المسلمين ومن يجاريهم من ناشئة الشرقيين ومستغربي الفكر والثقافة؛ حيث إن تأثيره في عقول هؤلاء أعظم أثراً في إقامة الأدلة من البراهين العقلية والأدبية[2].

ولأن القرآن الكريم كتاب أنزله الله -عز وجل- على رسوله ﷺ لهداية الناس، فقد اقتضت حكمته سبحانه أن ينزل بأسلوب لا يناقض حقائق الأشياء مما يجعله مدعاة إلى التكذيب، ومن ثم فإن سبل الكشف عن تلك الحقائق لأولى العلم في مستقبل العصور من عجائب القرآن التي لا تنقضي، ولقد ورد في الحديث الشريف «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم ... ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه»[3].

القسم النظري: تأصيل اتجاه التفسير العلمي وأثره على الخطاب الإسلامي

تعريف التفسير العلمي للقرآن

عرّف الشيخ الذهبي -رحمه الله- التفسير العلمي للقرآن بأنه «التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن، ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها»[4].

ويلاحظ أن لفظ (يحكم) الوارد في التعريف يدل على أن التفسير العلمي متعسف ومتكلف فهو يحمل عبارات القرآن ما لا تحتمله كما أن لفظ (يجتهد) يدل على العناء الكبير الذي يبذله أصحاب هذا الاتجاه التفسيري في سبيل تأييد أفكارهم العلمية. وهذا الموقف من الشيخ الذهبي -رحمه الله- تجاه تعريفه للتفسير العلمي لا غرو فيه؛ لأنه من المنكرين للتفسير العلمي والرافضين له.

وعرّفه د. يوسف القرضاوي -حفظه الله-: بأنه «التفسير الذي تستخدم فيه (العلوم الكونية) الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميه، وتوضيح معانيه. ويراد بالعلوم الكونية: علوم الطبيعة والفلك وعلوم الأرض (الجيولوجيا) والكيمياء، وعلوم الحياة

2- انظر: هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي، د. محمد إبراهيم شريف، ص 16، 17 ط: مطبعة المدينة 1406 هـ - 1986م.

3- سنن الترمذي (5/173، 172) (46) كتاب فضائل القرآن (14) باب ما جاء في فضل القرآن، حديث رقم (2906) ط: دار التراث بالقاهرة، بدون تاريخ.

4- التفسير والمفسرون 3/140، ط: دار الكتب الحديثة، ط: أولى، 1381هـ - 1962م.

(البيولوجيا) من النبات والحيوان، وعلم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء (الفسيولوجيا) وعلوم الرياضيات ونحوها »[5].

وهذا التعريف الذي ذكره د. القرضاوي -حفظه الله- نابع من موقفه تجاه التفسير العلمي؛ إذ إنه لا يبالغ في نفيه ولا يغلو في إثباته، فهو موقف عدل وسط و بضوابط محددة لا تكلف فيها أو تعسف، وسوف أتناول ذلك بإذن الله تعالى.

وعرّفه د. زغلول النجار بأنه « توظيف كل المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية »[6]. ويقصد بـ (المعارف) أي الحقائق والقوانين كما قد تكون فروضاً ونظريات ويبدو أن هذا التعريف يطابق ما أورده د. القرضاوي.

الفرق بين التفسير العلمي والإعجاز العلمي

شاع على الألسنة استعمال (التفسير العلمي) بمعنى (الإعجاز العلمي) ووقع الخلط بينهما حتى إن بعض الناس جعل كل تفسير علمي إعجازاً علمياً، وهذا غير صحيح. فالإعجاز العلمي مجاله أخص وأضيق من مجال التفسير العلمي، وقد أشار د. محمد إبراهيم شريف[7] إلى ذلك عند تسمية كتابه بـ (هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي) حيث قال: « ومن هنا كان التردد في عنوان الدراسة مرة باستخدام الشائع والمعروف على الألسنة وهو لفظ الإعجاز ما دام المدلول مفهوماً والمقصود واضحاً -حيث لا مشاحة في الاصطلاح كما يقولون- وإن كانت دلالة مصطلح (الإعجاز) على ما نريد غير دقيقة ولا سديدة، ومرة أخرى باستخدام ما طرحناه بديلاً لهذا اللفظ وهو هداية القرآن الكريم في الأنفس والآفاق، وهذا من شأنه أن يعطى المجتهد -منهجياً- في هذا الميدان مرونة واسعة؛ لأنه وهو دارس وباحث حين يقدم نتائجه على أنها اجتهادات منه في تفسير الآي القرآني وحسب يجنب نفسه كثيراً من أنواع التورط والزلل التي يمكن للأول أن يقع فيها وهو يقدم نتائجه على أنها الإعجاز القرآني أو من الإعجاز القرآني »[8].

5- كيف نتعامل مع القرآن، ص 396.

6- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم 35/1 ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2002م.

7- أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة.

8- هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي، د. محمد إبراهيم شريف، ص 21، 20.

ومن ثم فمجال الإعجاز يكمن في القضايا الثابتة التي لا تحتمل التغيير، وقد عرّفه د. القرضاوي بأنه «هو القضايا الواضحة المحكمة التي لا مجال للشك أو للتشكيك في سبق القرآن بها ... ثم إن الإعجاز لابد يسبقه تحد واضح، ودعوة إلى المعارضة بمثل ما يتحدى به، وأن تتوافر الدواعي إلى قبول التحدي، وتنتفي الموانع عن المعارضة، ثم يعجز المعارضون جميعاً»[9].

ويقول د.زغلول النجار: إن موضوع الإعجاز العلمي هو موقف التحدي الذي نريد أن نثبت به للناس كافة أن هذا القرآن يحوى من حقائق هذا الكون ما لا يستطع العلماء إدراكه إلا منذ عشرات قليلة من السنين وهذا السبق يقتضى توظيف الحقائق فحسب لا الفروض ولا النظريات[10].

ومن أمثلة الإعجاز: أطوار تخلق الجنين، قال تعالى: ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 12-14].

وأما التفسير العلمي فقد سبق تعريفه بأنه: التفسير الذي تستخدم فيه (العلوم الكونية) الحديثة: حقائقها ونظرياتها لبيان مراميه وتوضيح معانيه. ومن أمثلته قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ [الرحمن: 19-20] فإن المتخصص في علم البحار سينتبه إلى معان في الآيتين السابقتين مما لم يلتفت غيره إليها، وقوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] فإن المتخصص في علم الأرض (الجيولوجيا) سيجد في هذه الآية ما لا يجده عالم آخر، وهكذا.

العلاقة بين الدين والعلم، وأثره في مشروعية التفسير العلمي

إن أول ما نزل على سيدنا محمد ﷺ من القرآن الكريم قوله: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]

9- كيف نتعامل مع القرآن، ص 397.

10- من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم 36/1.

فبداية الدين دعوة إلى العلم والتعلم، وفي آيات القرآن الكريم تأكيد على أن الدين يحث على العلم، فكلما ازداد الإنسان علماً ازداد معرفة بربه وعلت منزلته واهتدى بنور العلم إلى حقائق الأمور وثبت يقينه، ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: 18] وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: 9] وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة: 11] وقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: 114].

وقد قبل الرسول ﷺ من أسرى بدر المشركين أن يفتدى الواحد فيهم نفسه بأن يعلم عشرة من المسلمين الكتابة، ومن الأحاديث التي وردت في فضل العلم والعلماء «وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[11]، وقوله ﷺ «طلب العلم فريضة على كل مسلم»[12].

والمنهج العلمي الحديث يتفق مع القرآن في الأساس الذي يقوم عليه بناء البحث العلمي، ويعد هذا الأمر دليلاً آخر على أن الدين والعلم متفقان لا تناقض بينهما، ويتضح التقاء العلم والقرآن الكريم من حيث الوسيلة في تحصيل المعرفة وما يرشدان إليه من قواعد المنهج التي من أهمها ما يلي[13]:

أ. الحق في القرآن الكريم ما قام عليه الدليل والبرهان القاطع كالعلم تماماً. قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [البقرة: 111]، وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: 148].

ب. يحاذر العلم أن ينزل بغير اليقيني منزلة اليقيني فلا يرفع النظرية إلى مستوى الحقيقة، وهذه طريقة القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا

11- سنن أبي داود (317/3) (20) كتاب العلم، 1 باب الحث على طلب العلم، ط: دار الفكر، بدون تاريخ.

12- سنن ابن ماجه (81/1) (17) باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ط: دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.

13- هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي، د. محمد إبراهيم شريف، ص 71، وما بعدها.

يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: 36]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24].

ج. يمنع العلم من التقليد في اتباع الغير دون دليل، وقد شدّد القرآن الكريم في هذا وأنكر على الذين اتبعوا آباءهم دون تفكير منهم. قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 104].

د. تقوم المشاهدة العلمية والملاحظة الدقيقة لموضوع الدرس في المنهج العلمي بعد تدريب وسائل الإدراك كالسمع والبصر والأفئدة، وهذا أصل قرآني في آيات كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ﴾ [الغاشية: 17]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

ه. يؤكد أصحاب المنهج العلمي على أن الحقيقة لا تتغير بتغير الزمان أو المكان وهو ما يسمى بأصل اطراد الحقيقة واستقلالها، وقد أكد القرآن على توافق الحقائق وأن عدم تناقضها أمر ثابت. قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: 3-4]، وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: 62].

والحاصل مما سبق أن الدين الحق هو الذي لا يكون منفصلاً عن العلم، بل يكون منه بمنزلة الروح والقوة الموجهة، فالمؤمن الصادق يدرك بفطرته أن الإسلام في مفهومه الأعلى علم ومعرفة بالله لن يصل إليها الإنسان إلا بمعرفة آياته في خلقه، ومن ثم فإن الدين والعلم متفقان في المقصد والغاية كما أنهما متفقان في المصدر الحقيقي لهما، بل يتجاوز أمر التوافق بينهما مصدر كل منهما ومقصده وغايته إلى أن روح العلم التي هي في صميمها التجرد للحق والصدق فيه هي هي روح الإسلام الذي يأمر بالحق والتجرد له وينهى عن الأهواء والتعصب المضل، فإذا بدا بعد ذلك أن هناك تعارضاً بين الدين والعلم، فليس بين دين وعلم، وإنما بين دين وجهل وسم بالعلم، أو بين علم ولغو تزيا بزي الدين؛ لأنه إذا كان الدين حقاً والعلم حقاً وجب أن يتصادقا ويتناصرا، وأما إذا

تكاذبا وتخاذلا فإن أحدهما -لا محالة- يكون باطلاً. وكما لم يصح اتهام الدين بمخالفة الحقائق العلمية إلا عند من عمهم الجهل متخفين في رداء العلم فلا يصح اتهام القرآن بمخالفة الحقائق العلمية الثابتة؛ لأن القرآن بريء من مثل هذا الاتهام، لما سبق بيانه من موقف القرآن إزاء العلم والعلماء[14].

فإذا كان العلم يخبرنا عن نواميس الكون وسنن الوجود ويرينا كيف نستخدمها ونسخرها لأنفسنا، فإن الدين يهدينا إلى أوجه الخير في هذا التسخير وطريق المنفعة في هذا الاستخدام، وحين يقود الدين العلم ويوجهه في تطبيقاته فعندئذ تصلح الإنسانية وتسعد في حياتها. وينبغي الانتباه إلى أن قصر النظر في تفسير القرآن الكريم على نحو هدائي فحسب يعد ميراثا غريبا منبثقا عن فكرة تضاد الدين والعلم المصطنعة، وأريد لها البقاء والتمكن والاستمرار في فكرنا الحديث؛ لصرف الأذهان عن معطيات القرآن الكريم العلمية والفكرية التي كانت الأساس لحضارات المسلمين السابقة[15].

ويمكن القول إن دعوة القرآن الكريم إلى المنهج العلمي في البحث والكشف عن الحقائق العلمية الثابتة الموجودة بالفعل في القرآن الكريم لهي خير برهان قوى واضح على مشروعية التفسير العلمي وتجعل الاشتغال بالمسائل والأبحاث العلمية ضرورة حتمية يحث عليها الدين.

أوجه الإعجاز في القرآن الكريم

إن القرآن الكريم هو كلام الله -عز وجل- أرسله رب العالمين على خاتم أنبيائه سيدنا محمد ﷺ بلسان عربي مبين يعجز البشر جميعا عن الإتيان بمثله أو ببعض منه، ويقصد بالإعجاز المعجزة وهي «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم من المعارضة»[16] فالمعجزة تقتضى أن تكون ملازمة بالتحدي الذي يتحقق بالمخالفة التامة لقوانين الطبيعة المعلومة للناس في حياتهم العادية. وأن تلائم: طبيعة المخاطبين بها، فحين كان المخاطبون بالرسالة ذوي فن مشهور يغلب عليهم جاءت المعجزة من جنس هذا الفن، فعندما كان السحر في عصر نبي الله موسى -عليه السلام- جعل الله من

14- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف، ص 640، 742، 743، ط: دار التراث، ط: أولى، 1402 هـ - 1982م.

15- انظر: السابق، ص 628، 740، 741.

16- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، 116/2 ط: دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، 1370هـ - 1951م.

معجزاته تحول العصا إلى حية وانفلاق البحر، وجاءت معجزة نبي الله عيسى -عليه السلام- إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله في عصر اشتهر فيه الطب، وحين كانت الفصاحة والبلاغة منتشرة بين العرب أضحت معجزة سيدنا محمد ﷺ ... القرآن الكريم كلاما في غاية الفصاحة والبلاغة. وأن تكون مستمرة خالدة ناسخة لما سبقها من معجزات[17].

والقرآن الكريم هو بذاته معجزة لا سبيل إلى إنكارها فقد تحدى العرب أصحاب الفصاحة أن يأتوا بمثله فلم يستطيعوا ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: 13]، أو يأتوا بسورة مثله فعجزوا ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ﴾ [البقرة: 23]، ثم جزم أنهم لن يأتوا بآية مثله ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: 24] وهذا التحدي الواضح لأرباب البيان دليل قاطع على أنه معجز بلفظه وليس من كلام البشر «فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلاً على أنه منه»[18].

وإننا إذا قصرنا الإعجاز في القرآن الكريم على ما فيه من ناحية بلاغية وروعة البيان فهذا يعدّ عدم فهم صحيح منا لحقيقة القرآن الكريم من جهة، وعدم إظهار وجه الإعجاز في القرآن لدى غير المسلمين من جهة أخرى وكذا المسلم غير العربي من باب أولى كما أن هذا ينفى عالمية القرآن وأنه الرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان.

بالإضافة إلى أننا لا نرقى إلى المستوى البلاغي والبياني الذي كانت عليه العرب وقت نزول القرآن، فهل انتهى إعجاز القرآن لنا أو لغيرنا من غير العرب؟!. أو أن هناك إعجازاً آخر غير البيان يتجدد للقرآن بتجدد العصور؟![19].

جاء في الإتقان «اختلف أهل العلم في وجه إعجاز القرآن فذكروا في ذلك وجوهاً كثيرة كلها حكمة وصواباً وما بلغوا في وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر

17- انظر: اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف ص 544، 545.

18- إعجاز القرآن للباقلاني 22/1 مطبوع على هامش الإتقان للسيوطي، وانظر: البرهان للزركشي 93/2، 94، ط: دار الجيل، بيروت، 1408هـ - 1988م.

19- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف ص 547، وفى ظلال القرآن، الشهيد سيد قطب 48/1، 49، ط: دار الشروق، الطبعة السابعة والعشرون، 1419هـ - 1998م.

معشاره فقال قوم: هو الإيجاز مع البلاغة، وقال آخرون: هو البيان والفصاحة، وقال آخرون: هو الوصف والنظم، وقال آخرون: هو كونه خارجاً عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه في كلامهم ومعانيه في خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم ... وقال آخرون: هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية، وقال آخرون: هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع »[20].

ومن المعلوم أنه يجب علينا –نحن المسلمين– أن نبين لغير المسلمين أن القرآن الكريم لا يناقض العلم وحقائقه بل يحترمه ويحث عليه ويدعو إلى التفكر والتدبر، خاصة والعالم يعيش عصر العلم الحديث والتطور الهائل المستمر يوماً بعد يوم وساعة تلو الساعة، فإذا جاءت الحقائق العلمية المكتشفة حديثاً بما توصل إليه العقول البشرية في عصر التقدم العلمي متفقة مع ما أنزله الله تعالى في كتابه العزيز فإن هذا بلا ريب تأكيد على معجزة القرآن الخالدة، والبرهان الواضح على أنه ليس من صنع البشر وصدق الله العظيم ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: 88] وقال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82].

آراء العلماء في قضية التفسير العلمي

أولاً: العلماء القدامى: حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، ابن أبي الفضل المرسى، السيوطي، أبو إسحاق الشاطبي

حجة الإسلام أبو حامد الغزالي

إن الإمام الغزالي أهم من أيّد التفسير العلمي في القرآن وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية، فنجده في كتابه الإحياء عقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن، في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل، وذكر أن « القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم إذ كل كلمة علم. ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع »[21]. وروى عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: « من

20– الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ص 122/2.

21– إحياء علوم الدين 341/1، ط: فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن»[22]، ثم قال: «وبالجملة، فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله -عز وجل- وصفاته، وفى القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها»[23] وأخيراً ختم كلامه بقوله: «بل كل ما أشكل فيه على النظار واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل الفهم بدركها»[24].

الشيخ ابن أبي الفضل المرسى

يعدّ الشيخ ابن أبي الفضل المرسى أيضاً من المؤيدين للتفسير العلمي في القرآن الكريم، وقد نقل الإمام السيوطي عنه رأيه فنص على قوله في تفسيره «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله خلا ما استأثر به -سبحانه وتعالى- ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه»[25].

وذكر أن أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها موجودة في القرآن «كالخياطة في قوله ﴿ يَخۡصِفَانِ ﴾ [الأعراف: 22]، والحدادة ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِ﴾ [الكهف: 96] ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ﴾ [سبأ: 10]»[26].

الإمام جلال الدين السيوطي

بعد أن أتم الإمام السيوطي رأى الشيخ ابن أبي الفضل المرسى ذكر رأى القاضي أبي بكر ابن العربي «علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة إذ لكل كلمة ظهر وبطن

22- إحياء علوم الدين.

23- السابق نفسه.

24- السابق نفسه

25- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، ص 126/2.

26- السابق 128/2.

وحد ومطلع وهذا مطلق دون اعتبار تركيب وما بينها من روابط وهذا ما لا يحصى ولا يعلمه إلا الله »[27].

ثم نص على رأيه في مسألة التفسير العلمي فقال: « وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها وفيه عجائب المخلوقات وملكوت السماوات والأرض وما في الأفق الأعلى وتحت الثرى وبدء الخلق ... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات »[28].

الإمام أبو إسحاق الشاطبي

عارض الإمام الشاطبي التفسير العلمي معارضة شديدة وأنكر عليهم ما ذهبوا إليه، وأخذ يدلل على رأيه، ويفند دعوى معارضيه. فنجده في النوع الثاني من المقاصد يتناول (بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام) وذكر في المسألة الثالثة من هذا النوع أن « هذه الشريعة المباركة أمية؛ لأن أهلها كذلك فهو أجرى على اعتبار المصالح »[29].

ثم أخذ يدلل على رأيه بأمور ثلاثة « أحدها النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: 2] ... والثاني أن الشريعة التي بعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصا وإلى من سواهم عموما إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أو لا فإن كان كذلك فهو معنى كونها أمية أي منسوبة إلى الأميين وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون ما عهدوا فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها فلا بد أن تكون على ما يعهدون والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية فالشريعة إذا أمية والثالث أنه لو لم يكن على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزا ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم هذا غير ما عهدنا إذ ليس لنا عهد بمثل هذا الكلام من حيث إن كلامنا معروف مفهوم عندنا وهذا ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: 44]

27- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي.

28- السابق 129/2، 130.

29- الموافقات 46/2، دار إحياء الكتب العربية، ط: فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجميا »[30].

ثم احتج الإمام الشاطبي لرأيه بما ورد عن السلف فقال: « وإلى هذا فإن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الآخرة وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا، نعم تضمن علوما هي من جنس علوم العرب أو ما ينبني على معهودها مما يتعجب منه أولو الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة دون الاهتداء بإعلامه والاستنارة بنوره أما أن فيه ما ليس من ذلك فلا »[31].

وبدأ في سرد الأدلة التي استند إليها أصحاب التفسير العلمي حيث قال: « وربما حكي من ذلك عن على بن أبي طالب ﷺ وغيره أشياء، فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَّافَرَّطۡنَافِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖ﴾ [الأنعام: 38] اللوح المحفوظ ولم يذكروا فيها ما يقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية وأما فواتح السور فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهدا كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب حسبما ذكره أصحاب السير أو هي من المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله -تعالى- وغير ذلك وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم فلا دليل فيها على ما ادعوا وما ينقل عن علىّ أو غيره في هذا لا يثبت فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة فيه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه والله أعلم وبه التوفيق »[32].

وقد أخذ د. القرضاوي على الإمام الشاطبي اعتماده على أمية الشريعة بناء على أمية الأمة -وأظنه محقا في هذا- حيث قال: « ومنطق الشاطبي هنا منطق قوى، وأدلته لا

30- الموافقات 46/2، 47.
31- السابق 52/2، 53.
32- السابق 53/2.

مطعن فيها، إلا ما كان من اعتماده على (أمية الشريعة) بناء على أمية الأمة. ذلك أن أمية الأمة ليست أمرا مطلوبا ولا مرغوبا فيه، بل بعث الله رسوله في الأميين رسولا ليخرجهم من الأمية إلى باحة العلوم والنور، كما قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الجمعة: 2] فهذه مهمة الرسول مع الأميين: التلاوة والتزكية الكتاب والحكمة، ولا عجب أن كانت الآيات الأولى من الوحي تنبئ بذلك: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5] وأقسم سبحانه بالقلم فقال: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: 1]. فالأمية ممدوحة في حقه ﷺ: لأنها أدل على الإعجاز، وليست ممدوحة في حق الأمة، وعلى الأمة أن تتحرر منها لتتعلم وتتفقه وتنظر في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 9] ولقد كان الرسول الكريم هو أول من حارب الأمية»[33].

ثانياً: العلماء المعاصرون: الشيخ الذهبي، الشيخ شلتوت، الشيخ أمين الخولي، الشيخ المراغي، الدكتور يوسف القرضاوي

الشيخ محمد حسين الذهبي

عارض عدد كبير من العلماء المعاصرين مسألة التفسير العلمي للقرآن فنجد الشيخ محمد حسين الذهبي يعتنق ما ذهب إليه الإمام الشاطبي -رحمة الله- فيقول: «أما أنا فاعتقادي أن الحق مع الشاطبي -رحمه الله-؛ لأن الأدلة التي ساقها لتصحيح مدعاة أدلة قوية، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل؛ ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم، ولا يبقى معها مدعاهم»[34]. ثم ذكر أمورا يتقوى بها اعتقاده في أن الحق في جانب الإمام الشاطبي -رحمه الله- بعد أن صرح برأيه، وملخصها ما يلي[35]:

أ. الناحية اللغوية

أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم، بل

33- كيف نتعامل مع القرآن، للدكتور القرضاوي، ص 377، 378.

34- التفسير والمفسرون 157/3.

35- انظر: السابق 157/3، 158، 159.

تدرجت دلالاتها، وإن كنا لا نعرف شيئا عن تحديد هذا التدرج، وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعاني للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون، فهناك معان لغوية، وهناك معان شرعية، وهناك معان عرفية، وهذه المعاني كلها تقوم بلفظ واحد، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن؛ نظرا لحدوثه وطروه على اللفظ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن، وجعلها تدل على معان جدت باصطلاح حادث، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم؟

ب. الناحية البلاغية

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن في أعلى درجات البلاغة، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمي وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه محتملة لهذه المعاني المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا في ورطة لا خلاص لنا منها؛ وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن في وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعاني، وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ؛ لأنه لم يراع حال المخاطب. وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم. وإن كانوا يعرفون هذه المعاني فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذي حوى علوم الأولين والآخرين؟

ج. الناحية الاعتقادية

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان، ونظامه نافع لكل عصر وزمان، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعا من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، هذا ما بجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به، ويسلم له دينه، ولا يرتاب فيه، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء، وجعلناه مصدرا لجوامع الطب، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكنا بذلك قد أوقعنا الشك في عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم؛ وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات، لا قرار لها ولا بقاء. وكم بين نظريات العلم قديمه وحديثه من تناف وتضاد فهل يعقل أن يكون القرآن محتملا لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من التنافي والتضاد؟ وإذا كان هذا معقولا، فهل يغقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا، ويكون

على يقين بأنه كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟؟.

الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت

فقد أنكر في مقدمة تفسيره على طائفة من المثقفين أخذوا بطرف من العلم الحديث، وتلقنوا شيئا من النظريات العلمية وشرعوا يفسرون الآيات القرآنية على مقتضى ثقافتهم الحديثة. وقد عاب عليهم ذلك فقال: «نظروا في القرآن، فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام: 38] فتأولوها على نحو زين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحا جديدا، ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة، وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن، ويرفعون من شأن الإسلام، ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.

نظروا في القرآن على هذا الأساس، فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن، وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله ... هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك؛ لأن الله لم ينزل القرآن ليكون كتابا يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع المعارف. وهى خاطئة من غير شك؛ لأنها تحمل أصحابها والمغرمين بها على تأويل القرآن تأويلا متكلفا يتنافى مع الإعجاز، ولا يسيغه الذوق السليم. وهى خاطئة؛ لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان، والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات»[36].

الشيخ أمين الخولي، والشيخ المراغي

من المعارضين أيضا الشيخ أمين الخولي فقد تبنى رأى الإمام الشاطبي في بحثه (التفسير: معالم حياته منهجه اليوم) واعترض على الذين أرادوا أن يخرجوه بالقرآن عن منهجه في مخاطبة العرب بما يفهمون، وما يعهدون من علوم ومعارف ورد على الذين زعموا أن في القرآن علوم الأولين والآخرين. وهذا الرأي هو لطائفة كبيرة من العلماء، منهم: الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، والدكتور عبد الحليم محمود، والشيخ

36- تفسير القرآن الكريم، للشيخ شلتوت، ص 11، 13، ط: دار القلم، ط: ثالثة 1965م.

عبد الله المشد، والشيخ أبو بكر ذكرى[37].

الدكتور يوسف القرضاوي

إن الدكتور يوسف القرضاوي من العلماء المعاصرين الذين لم يرفضوا التفسير العلمي رفضا مطلقا، ولا من الذين غالوا في استخدام هذه العلوم وتكلفوا في إظهار القرآن باشتماله عليها، وإنما هو من العلماء أصحاب الموقف الوسط، الذي لا يبالغ في النفي، وفى الوقت نفسه لا يغلو في الإثبات. ويتضح موقفه في ضوابط محددة يرى أنه يجب توافرها فيمن يريد أن يسلك اتجاه التفسير العلمي، ملخصها ما يلي[38]:

أولا: ضرورة المعرفة بأولويات هذه العلوم

لابد لمن يريد تفسير القرآن في عصرنا: أن يكون ملما بمبادئ هذه العلوم الطبيعية والكونية وإلا كان التفسير قاصرا عن اللحاق بالعصر وأهله. قال تعالى: ﴿ وَمَآ مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: 4] ولابد لمن يعيش في القرن الخامس عشر الهجري أن يخاطب الناس بلسان هذا القرن لا بلسان قرون مضت. وكما أن الفتوى تختلف باختلاف الزمان والمكان فإن تفسير القرآن وشرح الحديث وأسلوب الدعوة كلها تختلف باختلاف الزمان والمكان كذلك.

ثانيا: انتباه المتخصص في العلوم إلى ما لم ينتبه له غيره

من المعلوم أن كل مفسر للقرآن يتأثر بثقافته التي أتقنها وتخصص فيها كما رأينا ذلك في تفاسير علمائنا القدامى. فتفسير الفقيه غير تفسير المتكلم، وهما غير تفسير اللغوي وتفاسير هؤلاء غير تفسير الصوفي، بل إن كل قارئ للقرآن يفهم منه، ويأخذ عنه بحسب ثقافته وتوجهه، وهذا ما يثبته العلم نفسه. هذا قانون عام من قوانين النفس أو الحياة لا يمكن مقاومته ولا المراء فيه. ومن الطبيعي بعد هذا: أن نجد المفسرين للقرآن ينتبه كل منهم إلى ما لا ينتبه إليه الآخر، فرجل البلاغة: يلمح النكات البيانية، والأسرار البلاغية، والفقيه: يستنبط الدقائق التشريعية، والصوفي: ينجذب للأذواق

37- انظر: كيف نتعامل مع القرآن، د. القرضاوي ص 371.

38- انظر: السابق، ص 379، وما بعدها.

الروحية والسلوكية، والعالم الطبيعي: ينتبه لآيات الظواهر الكونية، سئل بعض الصوفية: هل تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه؟ فقال: نعم قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾ [المائدة: 18] فهذه اللفتة جديرة بذي التحليق الروحي أن ينتبه إليها. إذا عرفنا ذلك، فلا ينبغي أن ننكر على العالم –من علماء الكون و الطبيعية– أن ينتبه إذا قرأ الآية من القرآن إلى ما فيها من معان تتصل بثقافته وتخصصه، لم ينتبه إليها غيره من علماء الدين والشرع، أو من فحول علماء البلاغة والكلام والفقه، فالمتخصص في علم الأرض (الجيولوجيا) سينتبه إلى ما في قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: 7] من معان لم يلتفت غيره إليها.

ثالثا: شروط استخدام العلوم في التفسير

الشروط التي يجب أن تراعى حين نستخدم العلوم الكونية في التفسير وخدمة القرآن:

أ. أن نستخدم من نتائج العلوم ما استقر عند أهله، وغدا حقيقة علمية، يرجع إليها ويعول عليها ولا نعول على الفرضيات والنظريات التي لم تثبت دعائمها.

ب. ألا نتمحل ولا نتعسف ولا نتكلف في حمل النص على المعنى الذي نريد استنباطه، إنما نأخذ من المعاني ما ساعدت عليه اللغة، واحتملته العبارة دون قسر، ومن مراعاة اللغة هنا: ألا نحمل ألفاظ القرآن على المعاني المستحدثة في عصرنا، والتي لم تكن مرادة من النص يقينا، مثل حمل كلمة (ذرة) على المعنى الاصطلاحي في علم الفيزياء وغيرها ومن هنا رفض المحققون من علماء الشريعة، ومن علماء الطبيعة، ما قاله بعضهم في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمن: 33] إن السلطان هنا هو سلطان العلم وإن هذا يشير إلى غزو الفضاء و الصعود إلى القمر ... إلخ. لأن سياق الآية الكريمة يبين أن هذا التحدي في الآخرة، كما يدل على ذلك ما قبلها وما بعدها وأنهم لا يستطيعون الخروج من ملك الله تعالى. وأين يهربون من ملكه تعالى وهو الذي له ملك السماوات والأرض؟ ولو افترضنا أن الصعود إلى القمر نفوذ من أقطار الأرض فهل من أقطار السماوات؟ هذا مع أن الذين صعدوا إلى القمر أو داروا في الفضاء لا يزالون على صلة بالأرض فهي التي تحركهم وتراقبهم، وتعطيهم التنبيهات وترشدهم إلى إصلاح الخلل إن حدث، كما نقرأ ونعلم.

ج. عدم إلغاء القديم من التفسير: ينبغي أن نقبل من هذا اللون من التفسير: ما كان إضافة إلى القديم، وليس إلغاء كليا له، فلا مانع من إضافة فهم جديد للآية، أو جزء الآية فالقرآن لا تنقضي عجائبه و لا تنفد كنوزه وأسراره والله تعالى يفتح على عباده في فهمه ما يشاء لمن يشاء.

شبهات حول قضية التفسير العلمي، والرد عليها

1. شبهة أن التفسير العلمي يحمل اتهاماً للأمة طوال تاريخها وفيها خير القرون بأنها لم تفهم القرآن إلى أن جاء هذا العالم في زماننا فعلمها ما كانت تجهله من كتاب ربها.

إن مقتضى هذا الكلام أن الله أنزل على الناس كتابا لم يفهموه، ولم يعرفوا مراد منزله منه، مع أنه تعالى وصفه بأنه (كتاب مبين)، وأنه (نور) وأنه (هدى الناس). ومن ثم يجب أن نقبل من التفسير العلمي ما كان إضافة إلى القديم من التفاسير وليس إلغاء له بالكلية؛ إذ لا مانع من الفهم الجديد للآية أو جزئها فالقرآن لا تنقضي عجائبه[39].

2. شبهة أن تفسير الآيات الكونية الواردة في القرآن الكريم على ضوء ما تجمع لدى الإنسان من معارف هو نوع من التفسير بالرأي الذي لا يجوز.

استدل أصحاب هذه الشبهة بأدلة: منها حديث «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»، وحديث «ومن قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار». ومنها: ما نسب إلى بعض الصحابة والتابعين، قول أبي بكر الصديق ﷺ «أيّ سماء تظلني، وأيّ أرض تقلني إن قلت في كتاب الله برأيي» وقول عمر بن الخطاب ﷺ «اتبعوا ما تبين لكم من هذا الكتاب فاعملوا به، و ما لم تعرفوه فكلوه إلى ربه» وقول سعيد بن المسيب ﷺ «إنا لا نقول في القرآن شيئا» وقول عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- «لقد أدركت فقهاء المدينة وإنهم ليعظمون القول في التفسير» وقول مسروق بن الأجدع ﷺ «اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله».

تفنيد هذه الشبهة والرد عليها

فات أصحاب هذه الشبهة أن المقصود بالرأي في الحديث إنما هو الهوى لا الرأي إنما هو من قبيل الورع، خاصة أنهم قد فطروا على فهم اللغة العربية وفطنوا بها وبأسرارها، وعايشوا رسول الله ﷺ عن قرب وهو الموصول بالوحي وسمعوه يتلو

39- انظر: كيف نتعامل مع القرآن، د. القرضاوي، ص 383، وما بعدها.

القرآن ويجيبهم عما يعنّ لهم من أسئلة وأدركوا تفاصيل سنته الشريفة.

وفاتهم كذلك ما نقل عن رسول الله ﷺ من أنه قد صوب رأى جماعة من أصحابه حين فسروا آيات من كتاب الله، وقد دعا لابن عباس -رضي الله عنهما- فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» وفى القرآن الكريم من الآيات ما ينعى على أولئك الذين لا يتدبرون القرآن ولا يستنبطون معانيه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: 82-83] وهناك أعداد كبيرة من علماء المسلمين الذين اقتنعوا بضرورة الاجتهاد في تفسير القرآن الكريم ولكن بالضوابط العلمية التي لا تخرج القرآن الكريم عن مقاصده(40).

3. شبهة أن القرآن الكريم ثابت لا يتغير في حين أن معطيات العلوم التجريبية دائمة التغير والتطور، وما يسمى بحقائق العلوم ليست إلا نظريات وافتراضات يبطل منها اليوم ما كان سائداً بالأمس، وربما في الغد ما هو سائد اليوم، ومن ثم فلا يجوز الرجوع إليها عند تفسير القرآن الكريم؛ لأنه لا يجوز تأويل الثابت بالمتغير.

إن هذه الشبهة وما تحويه قول ساذج؛ لأن معناه الجمود على فهم واحد لكتاب الله، ينأى بالناس عن واقعهم في كل عصر حتى لا يستسيغوه فيملوه و يهملوه وثبات القرآن الكريم من السمات البارزة له و لا يمنع من فهم الإشارات الكونية الواردة فيه على أساس من معطيات العلوم الكونية، فالعلوم المكتسبة كلها لها طبيعية تراكمية ولا يتوافر للإنسان منها في عصر من العصور إلا أقدار تتفاوت بتفاوت الأزمنة، وهذه الطبيعية التراكمية تجعل الأمم اللاحقة أكثر علما -بصفة عامة- من الأمم السابقة إلا إذا تعرضت الحضارة الإنسانية بأكملها للانتكاس والتدهور، ومن ثم فإن معطيات العلوم الكونية بصفة خاصة والمعارف المكتسبة كلها بصفة عامة دائمة التغير والتطور، بينما كلمات وحروف القرآن الكريم ثابتة راسخة لا تتغير وإن هذا لدليل قاطع على الإعجاز في كتاب الله تعالى فرغم الثبات اللفظي للقرآن الكريم وتطور الفهم البشرى لدلالاته -مع اتساع دائرة المعرفة الإنسانية جيلا بعد جيل- فإن تلك الدلالات يتكامل بعضها مع

40- انظر: موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، جريدة الأهرام، 30 من إبريل 2001م.

بعض في اتساق لا يعرف التضاد، ولا يتوافر ذلك لغير كلام الله تعالى إلا إذا كان المفسر لا يأخذ بالأسباب، أو يسيء استخدام الوسائل فيضل الطريق.

وهذا برهان صادق يوضح أن القرآن الكريم يغاير كافة كلام البشر، وبالقطع من عند الله تعالى ومن ثم نجد القرآن الكريم يحض الناس دائما على تدبر آياته والعكوف على فهم دلالاتها ويتحدى أهل الكفر جميعا أن يجدوا فيه صورة واحدة من صور الاختلاف أو التناقض، قال تعالى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: 82] ونجده يكرر التساؤل التقريعي في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ ويؤكد ضرورة تدبر القرآن وأنه تعالى قد جعله في متناول عقل الإنسان فيذكر ذلك أربع مرات ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر: 17، 22، 32، 40] والذكر هنا يشمل التلاوة و التدبر معا، وفيه إشارة إلى استمرار تلك العملية مع مر العصور وتجدد الأزمان[41].

ويقول د. القرضاوي: «ولا يقال: إن العلم ليس فيه حقائق ثابتة إلى الأبد، فكم من قضايا علمية كانت يوما ما –بل ظلت قرونا وقرونا– حقائق مقدسة، ثم ذهبت قدسيتها العلمية، وأثبت التطور العلمي عكسها. وهذا صحيح و معروف، و لكن حسبنا الثبات النسبي للحقائق، فهذا هو الذي في مقدورنا بوصفنا بشرا وقد قيل في تعريف التفسير: هو بيان المراد من كلام الله بقدر الطاقة البشرية»[42].

ويقول الدكتور زغلول النجار: «أما القول بأن ما يسمى (بحقائق العلم) ليس إلا نظريات وفروضا يبطل منها اليوم ما كان سائدا بالأمس وربما يبطل في الغد ما هو سائدا اليوم فهو أيضا قول ساذج لأن هناك فروقا واضحة بين الفروض والنظريات من جهة والقواعد والقوانين من جهة أخرى، وهى مراحل متتابعة في منهج العلوم التجريبية الذي يبدأ بالفروض ثم النظريات وينتهي بالقواعد والقوانين، والفروض هي تفسيرات أولية للظواهر الكونية، والنظريات هي صياغة عامة لتفسير كيفية حدوث تلك الظواهر ومسبباتها، وأما الحقائق الكونية فهي ما يثبت ثبوتا قاطعا في علم الإنسان بالأدلة المنطقية المقبولة وهى جزء من الحكمة التي نحن أولى الناس بها، وكذلك القوانين

41– انظر: موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، جريدة الأهرام، 30 من إبريل 2001 م.

42– كيف نتعامل مع القرآن، د. القرضاوي ص 382.

العملية فهي تعبيرات بشرية عن السنن الإلهية في الكون، تصف علاقات محددة تربط بين عناصر الظاهرة الواحدة، أو بين عدد من الظواهر الكونية المختلفة، وهى كذلك جزء من الحكمة التي أمرنا بان نجعلها ضالة المؤمن »[43].

4. شبهة أن عدداً من المفسرين تعرضوا لتأويل بعض الإشارات الكونية الواردة في القرآن الكريم قد تكلفوا في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله في تعسف واضح.

لا ريب أن هناك من الباحثين –خاصة من علماء الكون– من تكلف في تحميل الآيات من المعاني ما لا تحمله، فانتهوا إلى نتائج رفضها المعتدلون من علماء الكون وعلماء الشرع على حد سواء. فمن ذلك أنه عندما ركب الإنسان في الفضاء خفّ من يقول لنا: إن هذه المركب هي الدابة التي تخرج من الأرض لتكلم الناس (إشارة إلى الآية 82 من سورة النمل) ثم تبعه من يقولون: بل إن هذا نفاذ من أقطار السماوات والأرض بسلطان (إشارة إلى الآية 33 من سورة الرحمن) وأن هذا السلطان هو سلطان العلم! و غني عن البيان أن هذا وذاك مخالفان للعلم والتفسير والمنطق وسياق القرآن جميعا! فالمنزلق جاء هنا من عدم الإلمام بما جاء في كتب التفسير عن هذه الآية الكريمة، أو حتى من عدم الحس الفطري بالمعنى البلاغي لهذا التحدي الشديد للإنس والجن أن يخرجوا من ملك الله ويفروا من قضائه (وإلى أين؟!)، هذا فضلا عن أن العلم لم يزعم على الإطلاق أن تلك (القفزات القصار) التي قفزها الإنسان خارج نطاق جاذبية الأرض، تعتبر خروجا من أي شيء إلا في ذلك النطاق شديد التواضع أمام ملك الله الذي لا يحد[44].

ثم يعقب د. القرضاوي على كلام هذه الفئة من الباحثين في مسألة خطيرة وهى أنهم دائما ما يقرنون قولهم بأن القرآن الكريم قد سبق العلم الحديث في هذا فيقول: « إن القرآن الكريم كتاب منزل من خالق الكون العليم بأسراره ونواميسه، بل إنه سبحانه وتعالى هو مبدع هذه الأسرار، وفاطر تلك النواميس. فمن العبث أن نعقد سباقا لا محل ولا معنى له بين كتاب الله العزيز –تنزهت كلماته– و بين علوم البشر، فهي –حتى و إن

43– موقف المفسرين من الآيات الكونية في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، جريدة الأهرام، 30 من إبريل 2001م.

44– انظر: كيف نتعامل مع القرآن، د. القرضاوي ص 383، 384.

بلغت في هذا الزمان شأوا عظيما- ليست إلا لمحات من علم الله الشامل الكامل »[45].

القسم التطبيقي: الدكتور زغلول النجار ومنهجه في التفسير العلمي

التعريف بشخصية الدكتور زغلول النجار، ومكانته العلمية[46]

مولده، ونشأته

ولد الدكتور زغلول راغب محمد النجار في قرية مشارى، مركز بسيون بمحافظة الغربية في 17 نوفمبر عام 1933م. حفظ القرآن الكريم منذ الصغر على يد والده الذي كان يعمل مدرسًا بإحدى مدارس المركز، وقد حرص الوالد دائمًا على غرس القيم الدينية والأخلاقية في حياة أبنائه حتى إنه كان يعطى للأسرة درسًا في السيرة أو الفقه أو الحديث على كل وجبة طعام. تدرج الفتى زغلول في مراحل التعليم حتى التحق بكلية العلوم، جامعة القاهرة في عام 1951م، ثم تخرج في قسم الجيولوجيا بالكلية في عام 1955م وحصل على درجة بكالوريوس العلوم بمرتبة الشرف وكان أول دفعته.

جهوده العلمية

وفى عام 1959م لاحت أول انطلاقة حقيقية للدكتور زغلول النجار في إثبات ذاته حيث دعي من جامعة آل سعود بالرياض إلى المشاركة في تأسيس قسم الجيولوجيا هناك. ثم سافر إلى إنجلترا، وحصل على درجة (الدكتوراه في الفلسفة) في الجيولوجيا من جامعة ويلز ببريطانيا عام 1963م، ثم رشحته الجامعة لاستكمال أبحاث ما بعد الدكتوراه من خلال منحة علمية من جامعته -Robertson, Post Research fellows Doctoral.

أبحاثه في إنجلترا

قدم الدكتور زغلول في فترة تواجده بإنجلترا أربعة عشر بحثًا في مجال تخصصه الجيولوجي، ثم منحته الجامعة درجة الزمالة لأبحاث ما بعد الدكتوراه (1963م – 1967م) حيث أوصت لجنة الممتحنين بنشر أبحاثه كاملة، وهناك عدد تذكاري مكون من 600 صفحة يجمع أبحاث الدكتور النجار بالمتحف البريطاني الملكي، طبع حتى

45- كيف نتعامل مع القرآن، د. القرضاوي، ص 399.

46- السيرة الذاتية للدكتور النجار، انظر: www.elnaggerzr.com

الآن سبع عشرة مرة.

عودته إلى البلاد العربية

سافر الدكتور زغلول إلى الكويت؛ حيث شارك في تأسيس قسم الجيولوجيا عام 1967م، وتدرج في وظائف سلك التدريس حتى حصل على الأستاذية عام 1972م، وعُيِّن رئيسًا لقسم الجيولوجيا هناك في العام نفسه. ثم توجه إلى قطر عام 1978م إلى عام 1979م، وشغل فيها المنصب السابق. وقد عمل قبلها أستاذًا زائرًا بجامعة كاليفورنيا لمدة عام في سنة 1977م.

بحوثه في مجال الجيولوجيا

نشر للدكتور زغلول ما يقرب من خمسة وثمانين بحثًا علميًّا في الجيولوجيا، معظمها في جيولوجية الأراضي العربية كمصر والكويت والسعودية ... من هذه البحوث: تحليل طبقات الأرض المختلفة في مصر، فوسفات أبو طرطور بمصر، البترول في الطبيعة، احتياطي البترول، المياه الجوفية في السعودية، فوسفات شمال غرب السعودية، الطاقة المخزونة في الأراضي السعودية، الكويت منذ 600 مليون عام مضت، مجهودات البشر في تقدير عمر الأرض، الإنسان والكون، علم التنجيم أسطورة الكون الممتد، منذ متى كانت الأرض؟. وقد رسم د. النجار أول خريطة جيولوجية لقاع بحر الشمال.

بحوثه وكتبه الإسلامية

نشر للدكتور زغلول ما يقرب من أربعين بحثًا علميًّا إسلاميًّا، منها: التطور من منظور إسلامي، ضرورة كتابة العلوم من منظور إسلامي، العلوم والتكنولوجيا في المجتمع الإسلامي، مفهوم علم الجيولوجيا في القرآن، قصة الحجر الأسود في الكعبة، حل الإسلام لكارثة التعليم. وله عدة كتب: منها الجبال في القرآن، إسهام المسلمين الأوائل في علوم الأرض، أزمة التعليم المعاصر، قضية التخلف العلمي في العالم الإسلامي المعاصر، صور من حياة ما قبل التاريخ، وغيرها. بالإضافة إلى أبحاثه المتميزة في الإعجاز العلمي في القرآن.

مكانته العلمية

الدكتور زغلول عضو في العديد من الجمعيات العلمية المحلية والعالمية منها: لجنة تحكيم جائزة اليابان الدولية للعلوم، وهي تفوق في قدرها جائزة نوبل للعلوم،

واختير عضواً في تحرير بعض المجلات في نيويورك وباريس، ومستشارًا علميًّا لمجلة العلوم الإسلامية Islamic science التي تصدر بالهند.

الدكتور زغلول داعية

للدكتور زغلول النجار اهتمامات متميزة في مجال (الإعجاز العلمي في القرآن الكريم)، حيث يرى أنه وسيلة مهمة وفعالة في الدعوة إلى الله عز وجل ويقول عن تقصير علماء المسلمين تجاه هذه الرسالة:لو اهتم علماء المسلمين بقضية الإعجاز العلمي وعرضوها بالأدلة العلمية الواضحة لأصبحت من أهم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل» ويرى أنهم هم القادرون وحدهم بما لهم من دراسة علمية ودينية على الدمج بين هاتين الرسالتين وتوضيحهما إلى العالم أجمع. ولقد جاب د. زغلول البلاد طولاً وعرضًا داعيًا إلى الله عز وجل يتحدث عن الإسلام في الندوات والمؤتمرات أو عبر شاشات التلفزة، وفى المناظرات التي اشتهرت عنه في مقارنة الأديان كما يؤمن د. زغلول بأن علينا تسخير العلم النافع بجميع إمكاناته، وأن أحق من يقوم بهذا هو العالم المسلم: «فنحن نحيا في عصر العلم، عصر وصل الإنسان فيه إلى قدر من المعرفة بالكون ومكوناته لم تتوفر في زمن من الأزمنة السابقة؛ لأن العلم له طبيعة تراكمية، وربنا سبحانه وتعالى أعطى الإنسان من وسائل الحس والعقل ما يعينه على النظر في الكون واستنتاج سنن الله».

ويؤكد د. زغلول -رغم اهتمامه الشديد بما في القرآن من إعجاز علمي- على أنه كتاب هداية للبشر وليس كتابًا للعلم والمعرفة «أشار القرآن في محكم آياته إلى هذا الكون ومكوناته التي تحصى بما يقارب ألف آية صريحة ... وردت هذه الآيات من قبيل الاستشهاد على بديع صنع الله سبحانه وتعالى ولم ترد بمعنى أنها معلومة علمية مباشرة تعطى للإنسان لتثقيفه علميًّا». ويدعو د. زغلول دائمًا إلى أن يهتم كل متخصص بجزئيته في الإعجاز العلمي ولا يخوض فيما لا يعلم «أما الإعجاز العلمي للآيات الكونية فلا يجوز أن يوظف فيه إلا القطعي من الثوابت العلمية، ولابد للتعرض لقضايا الإعجاز من قبل المتخصصين كلٌّ في حقل تخصصه».

الاتجاه التفسيري الذي سلكه

ويقصد بالاتجاه «مجموعة من المبادئ والأفكار المحددة التي يربطها إطار

نظري، وتهدف إلى غاية بعينها »[47]. فالاتجاه إذن يعدّ فكرة كلية يسير عليها طائفة كبيرة من المفسرين وقد سلك د. النجار اتجاه التفسير العلمي للقرآن الكريم؛ نظراً لشخصية العلمية المتخصصة في علوم الأرض وأبحاثه ومجهوداته الرائعة في هذا الميدان، ومن ثم فإنه يتضح لنا ذلك الاتجاه من عنوان مقالاته عن التفسير بـ (الإشارات الكونية في القرآن الكريم ومغزى دلالتها العلمية) وهى تنشر في جريدة الأهرام كل يوم اثنين في صفحة كاملة.

المنهج التفسيري الذي اتبعه لتحقيق الغاية من الاتجاه التفسيري

والمراد بالمنهج « الوسيلة المحققة لغاية الاتجاه التفسيري، والوعاء الذي يحتوى أفكار هذا الاتجاه التفسيري أو ذاك »[48]. ويتضح من ذلك أن المنهج بمثابة الطريقة التي تختص بالمفسر، وقد بدأ د. النجار مقالاته عن التفسير في جريدة الأهرام كل يوم اثنين الموافق 23 من إبريل 2001 م ولكن قبل بيان المنهج التفسيري الذي اتبعه د. النجار، تحسن الإشارة إلى أنه افتتح كلامه بنقاط مهمة تعد بمثابة المدخل أو التمهيد الذي يجد فيه الإنسان المسلم الإجابة عن أسئلة حائرة ربما كانت تدور بخلده ولا يعرف الإجابة عليها، فجاءت كلماته مسوقة بالأدلة والبراهين وفى أسلوب يسير يفهمه القارئ دون عناء أو مشقة. ومجمل هذه النقاط يتحدد فيما يلي:

أ. أوجه الإعجاز في القرآن الكريم.
ب. نشأة منهج التفسير العلمي لكتاب الله.
ج. حجة المعارضين لتعبير الإعجاز العلمي في القرآن الكريم.
د. موقف المضيقين.
ه. الرد على المضيقين.
و. الدعوة إلى الاجتهاد في التفسير.
ز. من مبررات رفض المنهج العلمي للتفسير.
ح. الرد على الرافضين للمنهج العلمي في التفسير.
ط. الرد على القائلين بعدم جواز رؤية كلام الله في إطار محاولات البشر.
ي. الرد على المدعين بكفر الكتابات العلمية المعاصرة.

47- اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر، د. محمد إبراهيم شريف، ص 68.
48- السابق نفسه

ك. الرد على الادعاء بالتعارض بين معطيات العلم والدين.
ل. موقف الموسعين في التفسير العلمي.
م. موقف المعتدلين في التفسير العلمي.

ما سبق كان المدخل وقد تناوله د. النجار على مدى أربعة أسابيع متتالية، ثم جاءت المقالة التفسيرية رقم (1) يوم الاثنين الموافق 21 من مايو 2001م. وقد افتتح كلامه بتفسير قول الله تعالى: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: 47].

ويمكن رصد منهجه التفسيري فيما يلي:
أولا: يبين المدلول اللغوي، وأسلوب القرآن الكريم؛ ليتضح الأمر في ذهن القارئ.
ثانيا: يتحدث عن المعنى المعجمي للألفاظ.
ثالثا: يذكر الآيات القرآنية التي تناولت اللفظ المعين، ومادته.
رابعا: يورد آراء المفسرين القدامى.
خامسا: ينبه إلى ما وقع فيه المفسرون القدامى من أخطاء في الآيات التي تؤكدها الحقائق العلمية الثابتة.
سادسا: يتناول بالتفصيل التفسير العلمي الدقيق للآيات.

النموذج التطبيقي

استعرض الدكتور زغلول النجار قول الله تعالى: ﴿ يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ﴾ [الرحمن: 33] ثم بين المدلول اللغوي، وأسلوب القرآن الكريم؛ ليتضح الأمر في ذهن القارئ حيث قال: هذه الآية الكريمة جاءت قرب نهاية النصف الأول من سورة الرحمن، التي سميت بتوقيف من الله تعالى بهذا الاسم الكريم لاستهلالها باسم الله الرحمن، ولما تضمنته من لمسات رحمته، وعظيم آلائه التي أولها تعليم القرآن، ثم خلق الإنسان وتعليمه البيان ، وقد استعرضت السورة عددا من آيات الله الكونية المبهرة للاستدلال على عظيم آلائه، وعميم فضله على عباده.

ثم تحدث عن المعنى المعجمي للألفاظ فقال: الدلالة اللغوية

1. (نفذ) يقال في العربية: (نفذ) السهم في الرمية (نفوذا) و(نفاذا)، والمثقب في الخشب إذا خرق إلى الجهة الأخرى و(نفذ) فلان في الأمر (ينفذ) (نفاذا)، و(أنفذه) (نفاذا)، و(نفذه) (تنفيذا)، وفى الحديث الشريف: نفذوا جيش أسامة؛ والأمر (النافذ) أي

المطاع، و(المنفذ) هو الممر (النافذ)

2. (أقطار): قطر كل شكل وكل جسم الخط الواصل من أحد أطرافه إلى الطرف المقابل مرورا بمركزه ويقال في اللغة: (قطرته) بمعنى ألقيته على (قطره)، و(تقطر) أي وقع على (قطره)، ومنه (قطر) المطر أي سقط في خطوط مستقيمة باتجاه مركز الأرض، ويسمى لذلك (قطرا)، وهو كذلك جمع (قطرة)، و(قطر) و(تقطير) الشيء تبخيره ثم تكثيفه قطرة قطرة من أجل تنقية الماء وغيره من السوائل تساقطه (قطرة) (قطرة) وجمعه (قطر) بضمتين و(قطرات) بضمتين أيضا، و(قطره) غيره يتعدى ويلزم، و(تقاطر) القوم جاءوا إرسالا (كالقطر)، ومنه (قطار الإبل) و(القطر) بالضم الناحية والجانب وجمعه (أقطار) و(قطران) الماء (تقاطره) قطرة قطرة و(القطران) ما يتقطر من الهناء (القار)، و(قطر) البعير طلاه (بالقطران) فهو (مقطور) أو (مقطرن).

ثم ذكر من آراء المفسرين القدامى ما يلي: ذكر ابن كثير-يرحمه الله-: أي لا تستطيعون هربا من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم لا تقدرون على التخلص من حكمه، أينما ذهبتم أحيط بكم ... ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي إلا بأمر الله ... ولهذا قال تعالى: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: 35] قال ابن عباس : الشواظ هو لهب النار، وعنه: الشواظ الدخان وقال مجاهد: هو اللهب الأخضر المنقطع، وقال الضحاك: ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ سيل من نار، وقوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال ابن عباس : دخان النار، وقال ابن جرير: والعرب تسمى الدخان نحاسا، روى الطبراني عن الضحاك أن نافع ابن الأزرق سأل ابن عباس عن الشواظ فقال : هو اللهب الذي لا دخان معه ... قال: صدقت، فما النحاس؟ قال : هو الدخان الذي لا لهب له وقال مجاهد: النحاس الصفر ... وجاء في تفسير الجلالين ما نصه: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ﴾ تخرجوا ﴿مِنْ أَقْطَارِ﴾ نواحي ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هاربين من الحشر والحساب والجزاء] ﴿فَٱنفُذُواْ﴾ أمر تعجيز [أي : فلن تستطيعوا ذلك] ﴿لَا نَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ بقوة ، ولا قوة لكم على ذلك ... ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ هو لهبها الخالص من الدخان أو: معه ﴿وَنُحَاسٌ﴾ أي: دخان لا لهب فيه [أو هو النحاس المذاب ...].

ثم وضح الدلالة العلمية للآيات الكريمة: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ أَن تَنفُذُواْ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُواْ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾

يُرۡسَلُ عَلَيۡكُمَا شُوَاظٞ مِّن نَّارٖ وَنُحَاسٞ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴾ [الرحمن: 33-35] حيث قال: هذه الآيات الثلاث التي تحدى القرآن الكريم فيها كلا من الجن والإنسان تحديا صريحا بعجزهم عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض، وهو تحد يظهر ضآلة قدراتهما مجتمعين أمام طلاقة القدرة الإلهية في إبداع الكون، لضخامة أبعاده، ولقصر عمر المخلوقات، وحتمية فنائها، والآيات بالإضافة إلى ذلك تحوى عددا من الحقائق الكونية المبهرة التي لم يستطع الإنسان إدراكها إلا في العقود القليلة المتأخرة من القرن العشرين، والتي يمكن إيجازها فيما يلي:

بالنسبة للنفاذ من أقطار الأرض إذا كان المقصود من هذه الآيات الكريمة إشعار كل من الجن والإنس بعجزهما عن النفاذ من أقطار كل من الأرض على حدة، والسماوات على حدة فإن المعارف الحديثة تؤكد ذلك؛ لأن أقطار الأرض تتراوح بين (12756) كيلو مترا بالنسبة إلى متوسط قطرها الاستوائي (12713) كيلو مترا بالنسبة إلى متوسط قطرها القطبي وذلك لأن الأرض ليست تامة الاستدارة لانبعاجها قليلا عند خط الاستواء ، وتفلطحها قليلا عند القطبين.

ويستحيل على الإنسان اختراق الأرض من أقطارها لارتفاع كل من الضغط والحرارة باستمرار في اتجاه المركز مما لا تطيقه القدرة البشرية ، ولا التقنيات المتقدمة التي حققها إنسان هذا العصر، فعلى الرغم من التطور المذهل في تقنيات حفر الآبار العميقة التي طورها الإنسان بحثا عن النفط والغاز الطبيعي فإن هذه الأجهزة العملاقة لم تستطع حتى اليوم تجاوز عمق 14 كيلو مترا من الغلاف الصخري للأرض، وهذا يمثل 0.2٪ تقريبا من طول نصف قطر الأرض الاستوائي، وعند هذا العمق تعجز أدوات الحفر عن الاستمرار في عملها لتزايد الضغط وللارتفاع الكبير في درجات الحرارة إلى درجة قد تؤدى إلى صهر تلك الأدوات، فمن الثابت علميا أن درجة الحرارة تزداد باستمرار من سطح الأرض في اتجاه مركزها حتى تصل إلى ما يقرب من درجة حرارة سطح الشمس المقدرة بستة آلاف درجة مئوية حسب بعض التقديرات ، ومن هنا كان عجز الإنسان عن الوصول إلى تلك المناطق الفائقة الحرارة والضغط، وفى ذلك يقول الحق -تبارك وتعالى- مخاطبا الإنسان: ﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ ٱلۡجِبَالَ طُولٗا ﴾ [الإسراء: 37].

ولو أن الجن عالم غيبي بالنسبة لنا ، إلا أن ما ينطبق على الإنس من عجز تام عن النفاذ من أقطار السماوات والأرض ينطبق عليهم. والآيات الكريمة قد جاءت في

مقام التشبيه بأن كلا من الجن والإنس لا يستطيع الهروب من قدر الله أو الفرار من قضائه بالهروب إلى خارج الكون عبر أقطار السماوات والأرض حيث لا يدرى أحد ماذا بعد ذلك، إلا أن العلوم المكتسبة قد أثبتت بالفعل عجز الإنسان عجزا كاملا عن ذلك، والقرآن الكريم يؤكد لنا اعتراف الجن بعجزهم الكامل عن ذلك أيضا، كما جاء في قول الحق -تبارك وتعالى- على لسان الجن: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ [الجن: 12] وذلك بعد أن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: 8][49].

الخاتمة

أ. إن القرآن الكريم كتاب أنزله الله -عز وجل- على رسوله ﷺ هداية الناس، لا يناقض حقائق الأشياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه.

ب. اتفاق الحقائق العلمية مع ما أشار إليه القرآن الكريم في محكم آياته يغلق أبواب الإلحاد أمام غير المسلمين، ويدحض الشبهات التي تثار ضد الخطاب الإسلامي.

ج. يقصد بالتفسير العلمي للقرآن: توظيف المعارف المتاحة لحسن فهم دلالة الآية القرآنية وليس تحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن.

د. الإعجاز العلمي: هو القضايا الواضحة المحكمة التي لا مجال للشك أو التشكيك في سبق القرآن بها كأطوار تخلق الجنين.

ه. يتفق المنهج العلمي الحديث مع القرآن في الأساس الذي يقوم عليه بناء البحث العلمي، من حيث (إقامة الدليل والبرهان القاطع - المنع من التقليد الأعمى - المشاهدة العلمية والملاحظة الدقيقة).

و. إن دعوة القرآن الكريم إلى المنهج العلمي في البحث والكشف عن الحقائق العلمية الثابتة الموجودة بالفعل في القرآن الكريم لهي خير برهان قوي واضح على مشروعية التفسير العلمي وتجعل الاشتغال بالمسائل والأبحاث العلمية ضرورة حتمية يحث عليها الدين.

ز. إذا قصرنا الإعجاز في القرآن الكريم على ما فيه من ناحية بلاغية وروعة البيان فهذا

49- مختصراً من المقال التفسيري رقم (35) جريدة الأهرام 18 من فبراير 2002م.

يعدّ عدم فهم صحيح منا لحقيقة القرآن الكريم من جهة، وعدم إظهار وجه الإعجاز في القرآن لدى غير المسلمين من جهة أخرى وكذا المسلم غير العربي من باب أولى كما أن هذا ينفي عالمية القرآن وأنه الرسالة الخاتمة الصالحة لكل زمان ومكان.

ح. يجب أن يتوافر فيمن يريد أن يسلك اتجاه التفسير العلمي ضوابط محددة حتى لا تختلط الأمور ومجملها:
أولا: ضرورة المعرفة بأوليات هذه العلوم.
ثانيا: انتباه المتخصص في العلوم إلى ما لم ينتبه له غيره.
ثالثا: شروط استخدام العلوم في التفسير.

ط. التفسير العلمي برهان صادق يوضح أن القرآن الكريم يغاير كافة كلام البشر.

ي. مقولة الدكتور زغلول النجار: «لو اهتم علماء المسلمين بقضية الإعجاز العلمي وعرضوها بالأدلة العلمية الواضحة لأصبحت من أهم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل».

المصادر والمراجع

1. اتجاهات التجديد في تفسير القرآن الكريم في مصر: د. محمد إبراهيم شريف، ط: دار التراث، ط: أولى، 1402هـ - 1982م.
2. الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، ط: دار الندوة الجديدة، بيروت، لبنان، 1370هـ - 1951م.
3. إحياء علوم الدين: لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي ط: فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
4. إعجاز القرآن: للقاضي أبي بكر الباقلاني، مطبوع على هامش الإتقان للسيوطي.
5. البرهان: للزركشي ط: دار الجيل، بيروت، 1408 هـ - 1988م.
6. تفسير القرآن الكريم: للشيخ شلتوت، ط: دار القلم، ط: ثالثة 1965م.
7. التفسير والمفسرون: للشيخ محمد حسين الذهبي ط: دار الكتب الحديثة، ط: أولى، 1381هـ - 1962م.
8. سنن ابن ماجه: لأبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ط: دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
9. سنن أبي داود: لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، ط: دار الفكر، بدون تاريخ.
10. سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة ط: دار التراث بالقاهرة، بدون تاريخ.
11. في ظلال القرآن: سيد قطب ط: دار الشروق، الطبعة السابعة والعشرون، 1419هـ - 1998م.
12. كيف نتعامل مع القرآن: د. يوسف القرضاوي، ط: دار الشروق، 1421 هـ.
13. من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: د زغلول النجار، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة، 2002 م
14. الموافقات: لأبي إسحاق الشاطبي، دار إحياء الكتب العربية، ط: فيصل عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.
15. هداية القرآن في الآفاق والأنفس وإعجازه العلمي: د. محمد إبراهيم شريف، ط: مطبعة المدينة، 1406 هـ - 1986م.